الموروث الشفاهي بوصفه رافدا أساسيا من روافد بناء الهوية الثقافية بمنطقة بني حسن المغربية

العربي العيوشي
كلية اللغات والآداب والفنون جامعة ابن طفيل القنيطرة
مختبر الديداكتيك واللغات والوسائط والدراماتوجيا
تأطير الدكتورة: فاطنة الغزي
المغرب

مقدمة:

يعتبر التراث ضمن الرأسمال اللامادي للشعوب، وأن البحث فيه لم يعد يقتصر على ما هو مكتوب ومدون فقط بل أصبح الموروث الشفهي وسيلة لإثبات الحقائق التاريخية، ورافدا لتحديد الهوية الثقافية للشعوب.

والمعلوم للذكر أن التراث المكتوب المتمثل في التدوين الوصفي أو البصري يتم الاحتفاظ به من خلال الوثائق والمخطوطات ووسائل الرقمنة الحديثة، بينما التراث الشفوي يبقى مسجلا في الذاكرة الشعبية المعرضة للنسيان وكل مظاهر التغيير الاجتماعي التي غزت حياتنا ،وأن النقل الثقافي للذاكرة الشعبية من جيل إلى جيل تقلص مفعوله خاصة مع ظهور الكهرباء الذي جعل من زمن الحكي خلال فترة الليل الطويل زمنا قصيرا يقتصر فقط على حكايات قبل النوم ،وهذا ما أدى بالجلسات العائلية وطقوس السرد بحضور الجدة كحاملة للموروث الشفهي بكل تجلياته إلى الاضمحلال .ومع دخول التلفاز الذي حمل معه أسلوبا جديدا في الحكي المعتمد على الصورة والصوت والتجسيد، أصبح المتلقي منجذبا للوسائل البصرية خاصة مع ظهور الهواتف الذكية والانفتاح على العالم الخارجي دون حواجز أو موانع فكرية.

ولأهمية التراث الشعبي القادر على اختزان الأحداث التي وقعت في الماضي وتغليفها بنماذج سردية من الحكي التي يمتزج فيها الواقعي بالخيالي والديني بالخرافي والمقدس بالمدنس من خلال الحكاية والمثل والعادات والطقوس في منطقة بني احسن، باعتبارها أماكن التماس مع القبائل الأخرى تاريخيا والمحاذية لنهر سبو بمنطقة الغرب بالمملكة المغربية.

1- مفهوم الموروث أو التراث

كلمة «الموروث" في اللغة مشتقة من مادة "ورث" ، والمأثور والتراث والميراث والموروث والإرث هي ألفاظ عربية مترادفة وردت في اللغة «كالحسب»[1]

ومن اللغويين من جعل الورث والميراث خاصين بالمال، والإرث خاص بالحسب، وتستخدم الكلمة مجازا للدلالة على ما هو معنوي ، يقال : « هو إرث مجد ، والمجد متوارث بينهم ، وهو الورثة ، وهم الورثة والوراث»[2]

فالتراث والميراث والإرث –كلها بمعنى واحد- وهو ما يخلفه الرجل لورثته، ومن ذلك قوله تعالى : "وتأكلون التراث أكلا لما"[3].

ونجده في المجال الديني يتجاوز المعنى المادي الضيق، لتصف أمورا معنوية ، وما يؤكد هذا المعنى للتراث قوله تعالى: "فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث آل يعقوب"[4] فالمقصود بالآية الكريمة ليس المال وإنما الجانب المعنوي لها.

فصار بذلك التراث معبرا عن جميع ما يخص الإنسان العربي ماديا ومعنويا ، بل هو جزء من مكونات الإنسان العربي ونفسيته ، فيشمل بذلك « التقاليد، والعادات، والتجارب، والخبرات، والفنون...إنه جزء أساسي من موقفه الاجتماعي والإنساني والسياسي والتاريخي »[5]

2- ما معنى التراث الثقافي؟

قبل مفهوم "التراث الشفوي للإنسانية" أو "التراث الشفهي اللامادي للإنسانية" ظهر أولا مفهوم 'التراث الثقافي اللامادي للإنسانية' في بداية سنوات 1990، بعد التوصيات التي قُدمت عام 1989 حول حماية الثقافات التقليدية، في وقت يتجه التراث العالمي أساسا إلى الجوانب المادية للثقافة. وفي عام 1997، بادر عدد من المثقفين المغاربة ومنظمة اليونسكو بعقد اجتماع في مدينة مراكش المغربية حدد خلاله مفهوم "التراث الشفوي للإنسانية". وتقرر خلاله التفريق بين أعمال هذا التراث بهدف حفظها وإبراز قيمتها، وذلك في إطار "إعلان روائع التراث الشفوي والتراث اللامادي للإنسانية". وفي عام 2001 أعلنت لأول مرة قائمة مأثورات تقدمت بها الدول. وتوضع قائمة جديدة كل سنتين. ويجب أن تكون المأثورات المقترحة تعبيرا ثقافيا حيا أو مهددا، كما يجب أن تكون قد وضعت لها برامج لصيانتها وتطويرها. وفي عام 2003 تبنت الدول الأعضاء في اليونسكو اتفاقية لصون التراث الشفهي اللامادي للإنسانية، التي دخلت حيز التنفيذ في شهر أبريل 2006. وقد أعطيت التوجيهات العملية لهذه المعاهدة من قبل اللجنة الدولية الحكومية، وحددت قائمة تمثيلية وأخرى تستوجب الصون الاستعجالي لتظهر عليها المأثورات التي حددت سابقا وتسجل عليها سنويا مأثورات جديدة.[6]

تعريف اليونسكو من نص اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي(المادة2)

يقصد بعبارة ''التراث الثقافي غير المادي'' الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات – وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية – التي تعتبرها الجماعات والمجموعات، وأحيانا الأفراد، جزء من تراثهم الثقافي. وهذا التراث الثقافي غير المادي المتوارث جيلا عن جيل، تبدعه الجماعات والمجموعات من جديد بصورة مستمرة، بما يتفق مع بيئتها وتفاعلاتها مع الطبيعة وتاريخها، وهو ينمي لديها الإحساس بهويتها والشعور باستمراريتها، ويعزز من تم احترام التنوع الثقافي والقدرة الإبداعية البشرية. ولا يؤخذ في الحسبان لأغراض هذه الاتفاقية سوى التراث الثقافي غير المادي الذي يتفق مع الصكوك الدولية القائمة المتعلقة بحقوق الإنسان، ومع مقتضيات الاحترام المتبادل بين الجماعات والمجموعات والأفراد والتنمية المستدامة.

وعلى ضوء التعريف الوارد في الفقرة أعلاه يتجلى ''التراث الثقافي غير المادي'' بصفة خاصة في المجالات التالية:

- التقاليد وأشكال التعبير الشفهي، بما في ذلك اللغة كواسطة للتعبير عن التراث الثقافي غير المادي.
- فنون وتقاليد أداء العروض.
- الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات.
- المعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون.
- المهارات المرتبطة بالفنون الحرفية التقليدية.

3: التقاليد الشفاهية:

يشمل مجال «التقاليد الشفهية وأشكال التعبير الشفهي » مجموعة متنوعة جداً من الأشكال المحكية، منها الأمثال والأحاجي والحكايات وأغاني الأطفال وقصص البطولات والأساطير والأغاني والقصائد الملحمية والتعويذات والصلوات والأناشيد والأغاني والعروض المسرحية وغير ذلك. وتُستخدم التقاليد الشفهية وأشكال التعبير الشفهي لنقل المعارف، والقيم الثقافية والاجتماعية، والذاكرة الجماعية. وهي تؤدي دوراً شديد الأهمية في الحفاظ على الثقافة نابضة بالحياة.

وهناك أنواع كثيرة للتعبير الشفهي شائعة يمكن أن تستخدمها جماعات بأكملها، في حين أن أنواعاً أخرى تقتصر على فئات اجتماعية محددة قد تكون للرجال دون النساء أو للنساء دون الرجال، أو المسنين فقط. وفي كثير من المجتمعات، يعتبر أداء التقاليد الشفهية مهنة عالية التخصص، وتنظر الجماعة للمؤدين المحترفين بكثير من الاحترام باعتبارهم حُماة الذاكرة الجماعية. ويمكن العثور على هؤلاء المؤدين في شتى الجماعات المنتشرة في جميع أنحاء العالم. وصحيح أن صيت الشعراء والرواة ذائع في المجتمعات غير الغربية، من قبيل مجتمعات الغريوت والدِّيللي في أفريقيا، إلا أن هناك تقاليد شفهية غنية في أوروبا وأمريكا الشمالية أيضاً.

ونظراً إلى أن التقاليد الشفهية وأشكال التعبير الشفهي تنتقل بالكلمة المحكية فإن أسلوب روايتها كثيراً ما يختلف. فالقصة هي عبارة عن مزيج — يختلف باختلاف نوعها وسياقها ومؤديها — من النسخ والارتجال والإبداع. وهذا المزيج يجعلها شكلاً من أشكال التعبير الحي المتنوع، لكنها في الوقت نفسه هشة تستند في استمراريتها إلى سلسلة متواصلة من التقاليد المتوارثة عبر أجيال المؤدين.

على غرار أشكال التراث الثقافي غير المادي الأخرى، فإن التقاليد الشفهية معرضة لخطر الإندثار نتيجة التوسع الحضري السريع والهجرة على نطاق واسع والتصنيع والتغير البيئي. فالكتب والصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون والإنترنيت كلها يمكن أن تترك أثراً يضر بالتقاليد الشفهية وأشكال التعبير الشفهي. ويمكن لوسائل الإعلام الحديثة أن تُحدث تغييرات كبيرة في أشكال التعبير التقليدي الشفهي، بل أن تحل محلها بالكامل. فالقصائد الملحمية التي كان إلقاؤها في الماضي يستمر عدة أيام قد انخفضت مدتها إلى بضع ساعات، كما أن أغاني الغزل التقليدية التي كانت تؤدى قبل الزواج.[7] تراجعت وبشكل كبير خلال الطقوس الاحتفالية.

يعتبر المجال الحسناوي (منطقة البحث) زاخرا بأشكال متعددة من التقاليد الشفاهية المعتمدة على الكلمة المعبرة (بل حتى الممارسات) التي تستعمل في عدة مناسبات كالأفراح، الموت، جني المحصول، طقوس زيارة الأولياء وما يُرافقها من قول، المرددات النسائية، الحكاية، اللغز، وغيرها من أشكال التعبير الشفهي حاضرة بقوة لذى مكونات المجتمع الحسناوي، فهي وظفت لغة المحيط أثناء الممارسة في زمن محدد أو خاص بنوع من الطقوس. وكنموذج استقيته من مجال الممارسات التقاليد الشفوية، فمثلا: عندما تلد البقرة للمرة الأولى تقوم النسوة بجمع الحليب المخثر (الرايب*) وتضعه في قربة(الشكوة*) وتحركه سبع مرات (تيمنا بسبعة رجال من الصلحاء) مع الدعاء بأن تكون هاته البقرة ولودة خاصة العجول مع طلب الزيادة في الرزق، ويُقدم جزء من الزبدة لإمام المسجد. إلا أن هاته التقاليد مع مرور الوقت أصبحت تندثر وتُختزل في أشكال بسيطة.

وكنموذج للتقاليد الشفهية الاحتفالية التي طالها التغيير احتفالات الأعراس: إذ أصبحت الحياة العصرية مُهيمنة على التقاليد الشفاهية، من اختيار الفضاء وزمن الممارسة والمساهمين في الاحتفال فحاليا يقتصر الأمر على الاستعانة بخدمات مدبرة الاحتفالات (النكافة) التي تتكفل بجميع الإجراءات من اختيار الملابس وطقوس حفل الحناء واختيار المغنين و وضعيات التصوير وغيرها، وثم حذف العديد من الطقوس كزيارة ضريح المنطقة لأخذ البركة واختيار الأيام والفصول(الصيف) المناسبة للاحتفال.

إن التقاليد الشفهية للمنطقة أصبحت هجينة، إذ أصبحت المشاهد الاحتفالية تستمد مقوماتها من خارج المنطقة ومن دول أجنبية فأصبحت الذاكرة الشعبية للمتلقي تبتعد عن تخزين الإرث الشفوي متأثرة بدخول التلفاز والهوائيات والهواتف النقالة التي ساهم وبشكل كبير في هذا التحول.

4: الرواية الشفاهية:

لقد تعددت المفاهيم واختلفت الآراء حول تحديد مفهوم موحد للرواية الشفوية وذلك بسبب اختلاف المصطلحات والتوجهات العلمية، فمنهم من يذكرها باسم الرواية الشفوية، ومنهم من يذكرها باسم التاريخ الشفهي والبعض الاخر يذكرها باسم "التراث الشفهي" وبالتالي نجد بأن صعوبة توحيد المصطلح كانت عائقا أمام إعطاء تعريف شامل ودقيق للرواية الشفوية.

يقول ابن خلدون "إن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل، وهاموا فيها وابتدع الزخارف من الروايات المضعفة ولفقوها ووضعوها ،واقتفى تلك الأثار الكثير من بعدهم اتبعوها وأوردوها إلينا كما سمعوها ،ولم يلحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل والغلط والوهم نسيب للأخبار ...والناقل إنما هو يملي وينقل والبصيرة تنقد الصحيح إذا تنقل والعلم يحلو لها صفحات القلوب ويصقل"[8]

من خلال قول ابن خلدون نرى أنه يتحفظ على الرواية الشفوية كمصدر من مصادر المعرفة وذلك لسببين هما:

1)اعتمادها على الذاكرة التي هي عرضة للقصور والخطأ.

2)إن التأريخ الشفوي وتحديد تاريخ الحياة هو عمليات تجري على الأحياء في حين أن التاريخ دراسة للماضي .

نجد الدكتورة أمينة عامر، تذكرها باسم الرواية الشفوية وقالت بأنها" ذكريات متعلقة بالماضي البعيد واكتساب شهرة واسعة في حضارة معينة، ولابد أن تكون تلك الذكريات المتواترة بحيث تكون قد انتقلت من جيل إلى جيل آخر ولعدة أجيال على الأقل"[9]

أما الدكتور عبد الله بن إبراهيم، اعتمد مصطلح التراث الشفهي لكونه أقرب للتاريخ من غيره من المصطلحات الأخرى مثل التراث الشعبي أو المأثورات الشعبية أو الفلكلور ...وغيرها في مقالته أهمية تدوين التاريخ الشفوي[10]

يقول الدكتور الحسين العماري: "أن الرواية الشفوية هي المكمل الأساسي للنصوص والوثائق والأركيولوجيا لكونها تقوم بتغطية ما يعتريها ويشوبها من نقائص كما بإمكانها أن تقدم وجهة نظر مغايرة، وهي أيضا مصدر تاريخي أساسي يمكن اعتماده في إعادة بناء ماضي الشعوب التي تفتقر إلى رصيد مكتوب كشعوب إفريقيا السوداء التي تقدس الكلمة وتعيش في عالم الإشارة وفي مضمون الذاكرة الجماعية"[11].

وبناء عليه فقد باتت الرواية الشفوية المحكية من الضروريات للباحثين في تدوين التاريخ المعاصر لأية أمة أو شعب على وجه الخصوص ،فالرواية الشفوية أضحت متممة ولازمة لتوكيد ما ورد في الوثائق الرسمية التي صدرت عن الحكومات، إلا أنه يجب على الباحث المؤرخ أن يعتبر تلك الرواية بديلا عن ما ورد في الوثائق لأي سبب من الأسباب وبالتالي فمن الواجب على الباحث الذي يقتضي الحقيقة ألا يدفعه حماسه لقبول الرواية بعينها لمجرد أنها لاقت هوى وارتياحا في نفسه ولذلك ينبغي التعامل مع الرواية المحكية على أنها دليل وليس مجرد مصدر نهائي لأن الذكريات ليست أحيانا ثابتة بل كثيرا ما تكون عرضة للنقص أو التشويش أو التعارض مع الحقائق الأخرى لانقضاء فترة طويلة عن حدوثها.

في هذا الصدد يقول عصام عدوان: "...ولكي نصل إلى رواية شفوية محكية صحيحة قدر الإمكان ينبغي مراعاة شروط عدة عند اختيار الرواة، وقبل إجراء المقابلات معهم منها:

- التأكد من إطلاع الراوي مباشرة على الأحداث التي يرويها.
- بعد الراوي وتنزهه عن الأغراض الشخصية.
- سلامة ذاكرة الراوي.
- تعضيد روايات الرواة بعضها بعضا.[12]

تعتبر الرواية الشفاهية محكومة بالمتن والسند خاصة وإن علمنا أن ما هو شفهي على العموم غير ثابت من حيث الكلمات والمرادفات الموظفة خلال السرد فهي تتعرض لمتغيرات المجال وتقلبات الأزمنة والعصور، بل حتى نفسية ومزاج السارد نفسه. فالمتن مرتبط بالمضمون وبذاكرة الراوي المعرضة للنسيان وقدرته على إقناع المتلقي بجميع الأساليب كالزيادة، والنقصان وخلق الاثارة وغيرها. فمثلا نجد في حكاية الذئب والقنفذ "عندما اقترح القنفذ على الذئب الدخول للحقل من أجل سرقة المحصول"، ففي رواية نجد المحصول عبارة عن تين، وفي رواية أخرى يكون المحصول بطيخا.

فالرواية على هذا الأساس تُظهر لنا التغير الفكري للمتخيل الشعبي في توظيف نوعية الإنتاج، بحيث انتقلت الفلاحة المحلية من الوضع المعاشي إلى الوضع التسويقي.

أما في حكاية التأسيس لنظام القبيلة، فتبقى الرواية الشفاهية وسيلة من وسائل البحث الأركيولوجي في التراث اللامادي للشعوب من أجل إثبات الأحداث التاريخية موازاة مع ما هو مكتوب خاصة وإن اعتبرنا التاريخ الرسمي أشرف عليه الأقوياء على مَرِّ العصور.

فمثلا، عندما نجد الشخص الحسناوي يستعمل كلمة الجمل في المثل الشعبي عندما يقول "خَلِي هَدَاكْ الجْمَلْ بَارَكْ" أي "اترك ذلك الجمل قاعدا". نستشف من هذا المثل أن الناس استعملوا الجمل ووظفوه في أغراضهم وعند مقابلتنا لبعض الناس بالمنطقة من كبار الناس أشاروا لنا أن الجمل كان موجودا في المنطقة وكان يستعمل لحمل البضائع والتجارة.

5: مفهوم الهوية

أصبح سؤال الهوية يظهر على ساحة المشهد الثقافي خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي كنتيجة للعولمة والتحولات السياسية والاجتماعية التي عرفها العالم .

ففي معجم الوجيز فالهوية تعني الذات[13].

اما في معجم الوسيط فالهوية تعني حقيقة الشيء أو الشخص الذي تميزه عن غيره[14].

فهناك من يربط الهوية بالذات، ومدى التباعد الحاصل بين الحاضر المتغير بشكل متسارع والماضي المرتبط بالأجداد. من هذا المنطلق يرى ستيوارت هول إلى أن هناك تحول وانبثاق هويات جديدة خاصة ما بعد الحداثة فهو يقول «تفترض الذات هويات مختلفة في مختلف الأزمنة، هويات ليست موحدة حول ذات متماسكة ففي داخلنا تكمن هويات متناقضة، تسحبنا في اتجاهات مختلفة بحيث تتغير تماهيتها وتنتقل باستمرار »[15].

قول عالم الاجتماع الفرنسي ألان توران A. Touraine: « لا تتأسس الهوية إلا بالاعتماد على العلاقة مع الآخر، كما لا نستطيع رفض المبدأ التحليلي الذي استخلصه علماء الأنثروبولوجيا من اللسانيات مفاده أن العلاقة مع الذات تخضع إلى العلاقة مع الآخر: الاتصال يحدد الهوية».[16]

هناك من يربط الهوية بالجماعة باعتبار هاته الأخيرة وحدة متماسكة لها مرجعيات وأسس موحدة، وسؤال الهوية يصبح منحصرا في بعد الانتماء ككيان جمعي .

إن الهوية في حد ذاتها هي تميز لمجموعة بشرية عن مجموعة أخرى على أساس أن الجنس البشري هو جنس واحد، لهم نفس التركيبة فيزيولوجيا، ولهم بعض الاختلافات العرضة نتيجة التغيرات المكانية والزمانية، أبرزت بعض التغيرات الجسدية التي تتماهى مع الطبيعة وتتأقلم مع البيئة المتواجدة فيها، كاللون الذي يختلف باختلاف درجات الحرارة على سطح الأرض، وبالنسبة لطول القامة وقصرها فيختلف باختلاف التضاريس ونوعية الطعام. من هذا الأساس بنى الإنسان هويته على الاختلافات الثقافية والفيزيولوجية والدينية والعرقية من أجل الحفاظ على تماسك المجموعات البشرية.

6: مفهوم الهوية الثقافية:

تعد الهوية الثقافية حاجة نفسية وروحية وعاطفية وفكرية تبحث عن سند أيديولوجي يؤطرها وتعتمد عليها في إثبات الذات كالقبيلة، التي بدورها تحاول الاعتماد على أسس ومرجعيات تؤطرها مثل الدين والعادات والقيم والأعراف والطقوس الاحتفالية والموسيقى وكل ما من شانه أن يربط أفراد ومكونات القبيلة فيما بينهم، وعليه ومع مرور الوقت تتشكل الخصوصية أو الهوية الثقافية خاصة مع تطور علاقات القرابة وارتفاع منسوب التصاهر العرقي لجماعة معينة.

يرى محمد عابد الجابري الهوية الثقافية بمستويات ثلاثة: فردية وجماعية ووطنية قومية، والعلاقة بين هده المستويات تتحدد أساسا بالنوع الآخر الذي تواجهه. ان الهوية الثقافية كيان يصير، يتطور، وليس معطى جاهزا ونهائي.[17]

ان الهوية الثقافية تقع ضمن التأثيرات التي يتعرض لها الأشخاص داخل جماعتهم من قبيل الأحداث الكبرى كالحروب والدعات والأنبياء والمفكرين وغيرهم من المؤثرين على المجموعات البشرية، وعليه فالهوية الثقافية لا تتسم بالثبات والديمومة فهي تتعرض لمجموعة من التغيرات التي تواجهها أثناء تطورها التاريخي.

7: التعريف بقبيلة بني احسن:

يحد المجال الجغرافي لقبيلة بني احسن كما يلي:

في الغرب مدينة سلا والمحيط الأطلسي ،وفي الشمال وغربه وشرقه نهر سبو الذي يفصلهم عن المناصرة، وفي الوسط عن سفيان وبني مالك، وفي الشرق عن الشراردة. وفي الجنوب الشرقي كَروان ،وفي الجنوب زمور، وفي الجنوب الغربي زعير وعرب الحوزية.

تمتد منطقة بني احسن طولا من ضريح سيدي مقرن علي بوجنون على الضفة اليسرى لنهر سبو إلى واد التويزة بزمور أي من الشمال إلى الجنوب، كما أنها تتجه عرضا من مدينة القنيطرة إلى ضريح سيدي محمد بن أحمد بالشراردة .

وتتوسط المنطقة غابة المعمورة الممتدة من ضفاف نهر بهت بالشمال إلى حدود بلاد زمور بالجنوب ثم تسترسل إلى بلاد كَروان. ويحيط بالمجال ثلاثة أنهار: سبو مع تعاريجه بالشمال، وأبو رقراق بالجنوب، والرضم بالشرق18.

تتميز أغلب أراضي بنى احسن بالانبساط إلا حدود الشراردة، وفي السهول حيث ترتفع قليلا. ولكون الأنهار والجداول تمر بها فقد كثرت في الأراضي المنخفضة المستنقعات والضايات التي كانت قبل العقد الرابع من القرن العشرين تغطي أكثر من 300ألف هكتار قبل أن تجفف وتستصلح. وكانت المرجة الكبرى تحتل وحدها ثلث أرض بني احسن وكانت تتكون من نهر الرضم ومياه نهر بهت[19]

بني حسن، اتحادية قبائل استقرت، مع مطلع القرن

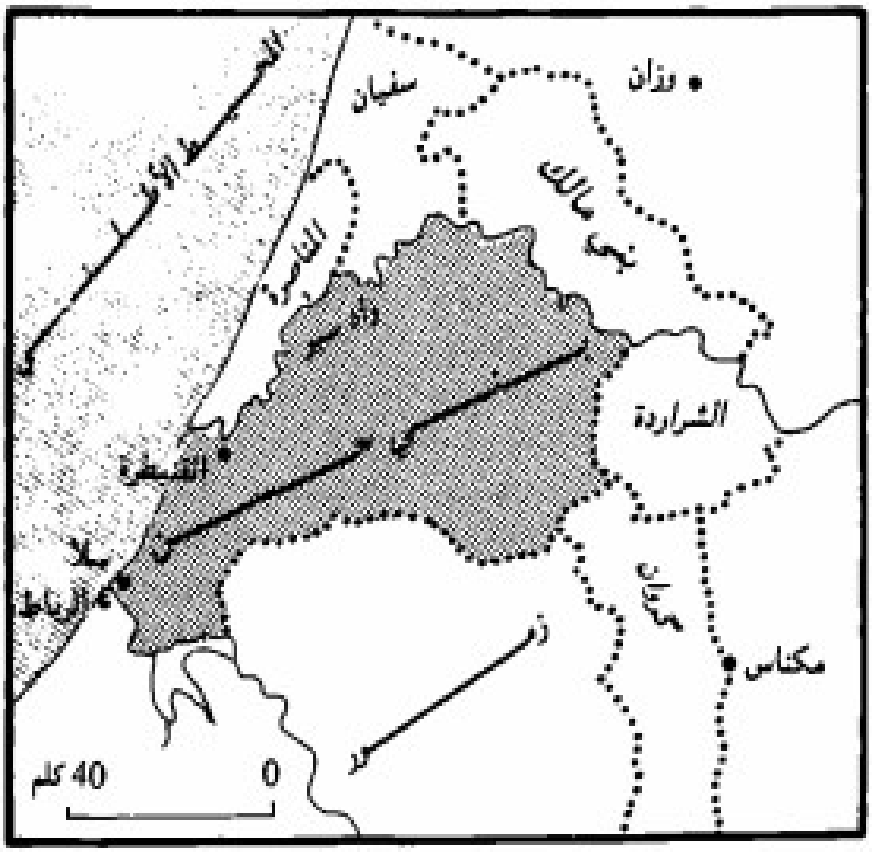

موقع بني حسن

8: أشكال الموروث الشفاهي لقبيلة بني احسن وبناء الهوية :

يعد الموروث الثقافي لجماعة بشرية معينة محدد لهويتها وبنائها ومكوناتها بل لتاريخها، فالنسبة لي يمكن اعتباره انعكاسا لما عاشته المجموعة البشرية خلال تاريخها من أحزان وأفراح، وتنقلات وصراعات، فالمجتمعات التي لم تعتمد على التدوين للحفاظ على موروثها الحضاري اقتصرت على ما هو شفهي. فعلى سبيل المثال في منطقة بني احسن المغربية نجد أن معظم سكانها قادمون من عدة مناطق.

فهناك من جاء قادما من منطقة الشرق الأوسط: من قبائل بني معقل عبر ممر المغرب الشرقي واستمرت رحلتهم لسنوات عديدة، كان هاجسهم الرعي والبحث عن الماء للمواشي وهناك جماعات قادمة من المناطق الجنوبية بحثا عن العمل أو ممارسة أعمال خاصة كالبناء وحفر الآبار والتجارة مع السكان الأصليين، بالإضافة إلى نوع ثالث وهم العمال الذين قدموا مع دخول المستعمر الفرنسي للعمل في الضيعات، على شكل عمال فلاحيين متخصصين باعتبار المنطقة كانت رعوية بالأساس، هذه الفئة انضمت إلى المجموعات السابقة.

شكلت التحولات السياسية عاملا من عوامل الاستقرار بالمنطقة، خاصة مع القانون الفرنسي الذي أجبر جميع القبائل على الاستقرار في مناطق تواجدهم وحد من الترحال الذي كان سمة من سمات سكان شمال إفريقيا.

هكذا استقر سكان منطقة بني أحسن في النهاية في البقعة التي أصبحت تلقب بلقبهم في يومنا هذا، بعدما دام مسيرهم هذا زهاء أربعة قرون، اتخذ في بعض الأحيان شكل الملحمة، وأحيانا أخرى مظهر التزحزح البطيء عبر المجال، فانضاف لهم في عهد العزة

بعض البطون التي لم تكن منهم في الأصل، كما فقدوا بعض فرقهم في فترات الضعف والتقهقر، وأخرى انضافت إليهم كمجموعة قائمة بذاتها كجماعة من المهاجرين الجزائريين الرافضين لاحتلال بلدهم في منتصف القرن التاسع عشر وهم الملاينة الآتون من مليانة غرب الجزائر.20

أولا : رقصة الهيت :

تعد رقصة الهيت من خصوصيات الإنسان الغرباوي الحسناوي فهي متداولة بين الطبقات الشعبية، وتشبه الهيوت الخليجي مما يدل على ترابط سكان بني احسن بأصولهم الشرق الأوسطية .من آلة المستعملة نجد المقص المستعمل في جز الأغنام، الدف " البندير" وهو الالة دائرية مصنوعة من الخشب وجلد الحيوانات، المزمار وهي آلة صوتية .

ينقسم الهيت الى ثلاث أنواع وهي:

- الهيت الحسناوي: نسبة الى قبائل بني احسن ويتميز بإيقاعه المتوسط.
- الهيت الغرباوي: يتواجد بمنطقة سيدي سليمان ويتميز بإيقاعه السريع.
- الهيت الحدادي: ينتشر بمنطقة الحدادة الواقعة بمدينة القنيطرة ويتميز هذا الشكل الغنائي بين الإيقاع المتوسط والبطيء.

تمارس الرقصة على شكل حلقة مختلطة بين العازفين والمتفرجين، في البداية يدخل أحد العازفين غالبا ما يكون صاحب المقص بافتتاح طقوس الرقصة بالتسمية والصلاة على النبي وطلب الرحمة والمغفرة واستحضار الأولياء والصالحين وبعض المواعظ والأمثال الراسخة في ذاكرة قبائل بني احسن مع ترديد عبارة "هي ..هي.." على شكل همهمة ترتفع شدتها بانتهاء غناء المنشد كفاصل ليدخل منشد آخر وراقصين جدد من الجمهور الحاضر. في هذا السياق يُعرف ابن منظور كلمة الهيت بمعنى هلم أي تعالى والمناداة للمشاركة في الرقص وإحياء الطقوس الاحتفالية، مع ارتفاع الإيقاع يتوالى دخول الراقصين من الجمهور في جو أقرب منه للروحانيات فيما يُعرف بالجدبة خاصة عندما يتم ذكر الأسلاف والاشتياق للأحباب وأمجاد الماضي، والأحزان وكرامات الأولياء والصالحين. ينغمس الجميع في مراحل متقدمة من الجذب والضرب بالأرجل بطريقة هيستيرية على الأرض والصياح دون انقطاع مرددين كلمة "هاو..هاو..".

ومن نماذج بعض القصائد الهيت نجد **القصيدة الأولى**:

باللغة الدارجة المغربية	ترجمتها باللغة العربية ومعناها
– الصلاة على النبي قلبي فهام.	الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم واللدي هام قلبي بحبه
– شاقت نفسي لزيارة لفحل مولاي عبد السلام حبيب الطلبة والعوام.	اشتاقت نفسي لزيارة الولي الصالح مولي عبد السلام بن مشيش حبيب الفقهاء والعوام
– اللي بغى يقول يقول عولنا عليه.	كل من أراد انتقادنا فلينقذ ،فنحن مستعدين له.
– فمها براد والنعناع فيه	فمها كبير ويعبر عن ما بداخل صاحبه
– قد يولد كي ناس ولا فارقيه	إن استطاع الزوج أن ينجب فاستمري معه وإن لم يستطع ففارقيه
– الملقى الأول يكون الخوف فيه	اللقاء الأول يكون صعبا

القصيدة الثانية:

باللغة الدارجة المغربية	ترجمتها باللغة العربية ومعناها
– رجانا في العالي يا ابنت امي.	رجاءنا في الله يا أختي
– نبدى بالصلاة على النبي هي زينة الكلام	نبتدئ الصلاة على النبي وهو أفضل الكلام
– الزمان لي بكى عليه النبي ها هو بدى	زمن ظهور علامات يوم القيامة
– الله يا الله أنا بين يديك خليت خيمتي خليت اولادي خليت جيراني	يا ربي تركت منزلي وأولادي وجيراني في رعايتك
– جود عليا يا ربي جود عليا	يا ربي جود عليَّ بعطفك
– خليت العزيز عليا هذا ما كتاب عليا	تركت الأحباب وهاجرت، هذا ما كان مقدرا

نستخلص من القصيدتين ما يلي:

– تبتدئ قصائد الهيث في قبيلة بني احسن على الخصوص بالصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم مما يحيلنا على المرجعية الدينية والهوية الإسلامية للقبيلة ،مع استحضار بعض الشخصيات الصوفية المعروفة في المغرب وذكر مناقبهم والتبرك بكراماتهم(مولى عبد السلام بن مشيش دفين قبيلة بني عروس) .

- الدعوة للصبر والحنين للديار بسبب الهجرة أو رحلات الجهاد في الزمن السابق.
- ذكر بعض الأمثال والحكم من أجل الاقتداء والموعظة.
- الدعوة للإنجاب .

ثانيا: الحكاية :

الحكاية 1 :عن أصل قبيلة بني احْسَن:

رواها أحد الشيوخ الذي عايش فترة الحماية فيقول:

في هاته البلاد كان يستقر أهل الغرب التي نتواجد بها نحن الآن، وكانت قبيلة بني احسن تستقر في منطقة المويسي ،واقترح بعض رجالهم مهاجمة قبيلة الغرب المجاورة وطردها من موطنها الأصلي في زمن الفوضى أو ما يعرف (زمان السيبة*)ثم قالوا (انحطو*هنا) أي نستقر هنا، وأُطلق عليهم اسم "بني احسن" أي هنا أفضل، وطردوا القبيلة الأصلية إلى غرب المنطقة ما وراء النهر و سموا هم أيضا الغرب.

الحكاية 2 : قيل قديما أن الجد الأكبر للقبيلة اسمه "الحسن" وكان لديه ثلاثة أبناء :

الأول يسمى " ادا بلحسن " والثاني يسمى "آيت لحسن " والثالث يسمى" ابن لحسن"، ويقال عندما كبر الأولاد فرق أبناءه كما يلي:

- ادا بلحسن أعطاه كتاب وأوصاه أن يتوجه إلى الجنوب ببلاد الموريتان وأن يهتم بالعلم.
- آيت لحسن أعطاه سلاح وأوصاه بالدفاع عن الأرض .
- بن لحسن أعطاه محراث وأوصاه بالتوجه إلى منطقة الغرب والاهتمام بالفلاحة.

الحكاية 3 :

يحكي لنا أجدادنا أن الناس قديما كانوا يرتحلون من مكان لآخر إما هربا أو من وطأة الجفاف، وإذا وصل إلى خيمة (مسكن) يسأل أهلها عن طبيعة المنطقة فيوصيه ويُرشده إلى منطقة أخرى بعيدة عنه ويقول انصب خيمتك هناك ،فَأُطلِقَ عليهم لقب "ابني احسن".

نستخلص من هاته الحكايات العديد من المعطيات التاريخية أهمها:

- عصر السيبة: ويرجع الى الفترة ما قبل الحماية
- حديث يؤرخ لتسمية القبيلة ونمط عيشها: فبرجوع إلى المراجع التاريخية نرى أن نمط الترحال كان هو الأساس وأن البحث عن المراعي الخصبة كان يستوجب الدخول في صراعات دموية بين القبائل في غياب سلطة المخزن خلال حكم الدولة المغربية.

الخاتمة

لقد أصبح الحفاظ على الهوية الثقافية للشعوب هاجسا يؤرق العديد من الدول خاصة مع الثورة التكنولوجيا الكبرى التي تعرفها البشرية من خلال هيمنة وسائل الاتصال على كل مناحي الحياة.

لذى يتوجب علينا البحث عن طرق جديدة لاستثمار وتطوير مورثنا الثقافي بطل أشكاله المادي واللامادي، وذلك من خلال تثمينيه وتدريسيه في المدارس فموروث الشفاهي كنموذج قابل لتحويله الى نصوص قرائية وبهاتة الطريقة نضمن نسبيا تمكن الأجيال الصاعدة الاطلاع على جانب من مورثنا الثقافي الدي هو مجموعة من التجارب والخبرات التي راكمها أجدادنا.

الهوامش:

1 ابن منظور، لسان العرب، مادة (ورث) ،ج 2، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ص 200

2 الزمخشري، أساس البلاغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة،د.ط، 1979، ص 670.

3 – القرآن الكريم، سورة الفجر، الآية :19.

4 – المرجع نفسه، سورة مريم، الآية 16.

5 جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار الملايين، بيروت، ط2، 1981، ص 63.

6 الموقع الرسمي لليونسكو نسخة محفوظة 19 سبتمبر 2015 على موقع واي باك مشين (زيارة الموقع 10شتنبر2019 الساعة 19:00بتوقيت المغرب1+GMT)

7 الموقع الرسمي لليونيسكو مقال التقاليد الشفهية وأشكال التعبير الشفهي، بما فيها اللغة، بوصفها وسائل لنقل التراث الثقافي غير المادي الرابط--/https://ich.unesco.org/ar/00053

8 ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص 5

9 امينة عامر:التاريخ الشفهي :تاريخ ينقله التاريخ .مجلة Curarisons Journal العدد 5 يونيو 2005 ص 1

10 عبد الله بن إبراهيم :أهمية تدوين التاريخ الشفهي ،مجلة الدرعية العدد40سنة 2009 ص1

11 الحسين العماري،حدود اسهام الرواية الشفوية والاركيولوجيا في كتابة تاريخ جنوب الصحراء دورية كان التاريخية العدد 14سنة 2011 ص13

12 عصام عدوان بحث بعنوان "التثبيت في صحة الروايات الشفوية وكيفية استخدام النقد والتحليل في منهجية البحث التاريخي في كتاب محاضرات في منهجية التاريخ الشفوي وتقنياته، إصدار مركز التاريخ الشفوي بكلية الآداب بالجامعة الإسلامية الطبعة 1 غزة ماي 2005 ص 76-68

13 معجم الوجيز الصادر عن مجمع اللغة العربية القاهرة 1997 ص654

14 معجم الوسيط الجزء الثاني ص 998

15 مفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع تحرير طوني بينيت ،لورانس غروسبيرغ وميغان موريسترجمة سعيد الغانيمي إعداد المنظمة العربية للترجمة ص704.

16 Alain Touraine, Pourrons-Nous Vivre Ensemble? Égaux Et Différents, Fayard, 1997, P. 261

17 محمد عابد الجابري،العولمة والهوية الثقافية، مجلة فكر ونقد، العدد 6 ،1998

18 أبو شعرة ص20

19 المرجع نفسه

20 إسماعيل العلوي معلمة المغرب الجزء الخامس، مادة بني احسن ،ص1522